عجائب ارز لبنان

ليس بين قراء العربية من لا يعرف شيئاً عن ارز لبنان . ولكن هذه المعرفة قد لا تتجاوز عند السواد الاعظم حد القول بأنهُ هو الارز الذي اخذ منه سليمان اخشاب هيكله المشهور . وانهُ غابة موجودة في لبنان. فمن الغريب ان هذه القيمة التاريخية العظيمة التي للارز لم تدفع سوى عدد قليل من الناس لزيارته ولم تكد تحمل احداً من زوار تلك الغابة الساحرة الى درس حالتها او تحقيق شيء عنها

اصبح الناس بعد ما امتدت الطريق الى الارز في هذه السنة وبعض السنة الماضية يقصدون غابة الارز لمشاهدة اشجارها زرافات ووحداناً . ولكن كل ما يفعلونه هناك هو انهم يصعدون الى الرابية القائمة عليها الغابة ويشاهدون عرضاً بعض الاشجار الضخمة ويكتفي من يتوغل منهم في الغابة باصطياد عصفور ببندقية صغيرة او بمشاهدة اللوحة التي وضعت على احدى الاشجار تذكاراً لزيارة لامرتين شاعر فرنسا المشهور وابنته جوليا للارز منذ مائة سنة او برؤية شجرة « الجيش » التي سنتكلم عنها فيما يلي

اما التأمل فيما تحتويه الغابة ذاتها من عجائب هذا الشجر وغرائب نموه فلم ار بين جميع الذين قابلتهم في الارز من يهتم له وقد حاولت كثيراً ان اعثر على شيء من المعلومات المكتوبة لاستعين بها مدة اقامتي القصيرة في الصيف الماضي في تلك الغابة على جلاء شيء من اسرارها فخانني الحظ حتى الآن . على ان ما فاتني استطلاعه من ثنايا التاريخ لم يفتني استجلاء بعضه بالمشاهدة والتتبع . فقد جبت اطراف الغابة كل يوم واتأمل في اشجارها شجرة شجرة والاحظ كيفية نموها وانتشار اغصانها فرأيت في ذلك بعض العجائب والغرائب التي لم ارَ لها نظيراً في أية غابة اخرى او في اي شجر آخر

اما ضخامة الارز فانها نادرة في غير بعض انواع الشجر التي تعيش في المناطق الحارة وولاية كاليفورنيا ففي الغابة شجرة يبلغ محيط جذعها نحو ١٦ متراً وتكثر فيها الاشجار التي يتراوح محيط جذعها بين ١٠ و١٥ متراً وقد روى لي الاب الفاضل وكيل وقف الارز ان الاب لاماتس اكد عند ما شاهد تلك الشجرة وفحصها فحصاً سطحيًّا ان عمرها لا يقل عن ٤٠٠٠ سنة

اما الغابة ذاتها فانها قائمة على رابية يشرف عليها « قم المزاب » من الشمال « وظهر القضيب » من اليمين . وهاتان القنتان اعلى قمم جبل لبنان بعد القمة المسماة « قرنة السوداء »

ويبلغ علو كل منها نحو ٣٤٠٠ متر عن سطح البحر. اما راية الارز فقد تحققت من مقياس العلو الذي كان بيدي ان علوها يبلغ ١٩٤٠ متراً عن سطح البحر. والهواء هناك جاف كل الجفاف يبث في الجسم نشاطاً عجيباً ولا تستطيع الاجسام الضعيفة ان تتحمله مدة طويلة. وقد جيء الى الارز بماء من اقرب نبع اليه يسمى نبع « شاغورة » وينبت في وسطه بركة كبيرة الى جانب الكنيسة الموجودة هناك. والماء عذب خفيف فوّار يشعر شاربه انه أخف والذ واعظم ما عد للهضم من اكثر انواع المياه المعدنية التي تبتاعها زجاجات مختومة

ويحيط بالغابة من كل جانب حتى قمة الجبل اراض معظمها جرداء وبعضها يزرع ويروى بماء نبع « شاغورة » تبدأ الزراعة في اول شهر سبتمبر فلا يكاد ينقضي شهر اكتوبر حتى يكون الزرع قد نما قليلاً. وبعد ذلك يأتيه الثلج ويغطيه حتى شهر ابريل من السنة التالية، وعند ما يذوب عنه يكون قد تلف اخضره ولكن جذوره تبقى حية في الارض ولا تلبث ان تنمو بفعل حرارة الشمس ومياه الري ولا يدنو حصاده الا في اواخر شهر يوليو

روى لي بعض العارفين من ابناء تلك الانحاء ان جميع تلك الروابي الجرداء المحيطة بغابة الارز كانت مملوءة بهذا الشجر في الازمنة الماضية ولكن الناس جعلوا يقطعون الاشجار منها ويستعملونها حطباً في حاجاتهم المنزلية الى ان جاء رستم باشا احد متصرفي الجبل السابقين فاحاط البقية الباقية من الارز بسور من الحجر لكي يمنع الاعتداء عليها. وجاءت الحكومة اللبنانية بعد ذلك فاقامت سوراً آخر من الملك الشائك بعد ذلك السور الحجري وضمت اليه عدداً من الاشجار التي بقيت خارج السور الحجري الى الغابة

ولم يكن الارز وقفاً فيما مضى من الزمن ولكن يخيل اليّ ان السبب الذي دعى الى جعله وقفاً هو في الغالب الحرص على استبقائه. لذلك سمي «ارز الرب» واقيمت كنيسة فيه. واعطى معنى القداسة وحرّم قطع شيء من اغصانه وحفر الاسماء على اشجاره. وهذه الصبغة الدينية التي صبغ بها الارز كانت خير وسيلة لجعل الناس يحاشون انتهاك حرمة هذا الشجر التاريخي العظيم والامتناع عن الاحتطاب في تلك الغابة. وصبحوا بدلاً من ذلك يحجون كل سنة في عيد ارب حد لاعياد الكاثوليكية الى تلك الغابة ويصلون في كنيستها ويقيمون ليلة تحت اشجارها

وللارز حراس رسميون يتقاضون مرتباتهم من الحكومة اللبنانية ويقيمون في الارز صيفاً يعشش مبنية بحجارة مكدسة بعضها فوق البعض بلا ملاط ولا مونة. اما في الشتاء فانهم ينزلون الى احدى القرى المجاورة لان الثلج يغمر تلك الانحاء ويبلغ علوه عدة امتار. وهم يخدمون زائري الارز بكل بشاشة ولطف ويرافقونهم مشاهدة ما يريدون مشاهدته من اشجاره

واشجار الغابة متفاوتة في اعمارها كل التفاوت. فمنها ما يبلغ عمره بضعة آلاف من

السنين كالشجرة التي اشرت اليها فيما تقدم ومنها مالا يبلغ علوه عن سطح الارض الا بضعة سنتمترات لانهُ بعد ما اتم السور حول الغابة وحفظت من الايدي جعل بعض الشجر ينمو داخل السور . فترى الآن في الجزء الشرقي من الغابة بضع عشرات من الشجيرات تتراوح اعمارها بين عشر سنوات وماتي سنة . وهنالك شجرة لا يزيد ارتفاعها على متر ونصف ويؤكد حرّاس الارز ان عمرها يزيد على خمسين سنة . فاذا قسنا حجم هذه الشجرة الى حجم الاشجار الضخمة التي يبلغ محيط جذعها نحو ١٥ متراً لم نستغرب ان يحسب عمر هذه ببضعة آلاف من السنين

ومعظم اشجار الغابة متوسطة الحجم فعدد الاشجار التي يزيد محيط جذعها على عشرة امتار لا يتجاوز بضع عشرة شجرة . وقد حاولت كثيراً ان اعرف عدد الاشجار في الغابة فلم يستطع احد ان ينبئني عنها . ولكن الحراس يؤكدون انهُ يزيد على خمسمائة شجرة . ومن الراسخ في اذهان الناس ان شجر الغابة لا يمكن عده . ولكنني لم اجد صعوبة في ذلك الا انني لم احاول ان اقوم بهذا الاحصاء . وليس للارز ثمر بل هو من اشجار الظلال فقط . وتنمو عليه اكواز كاكواز الصنوبر تحتوي على بذر الشجر . وهي بطيئة النمو تظهر اولاً في شكل عود مستطيل يبرز عمودياً من الغصن ثم تبدأ بالتضخم الى ان تصبح في شكلها البيضوي وتظل كذلك على الشجرة الى ان تيبس وتسقط الى الارض وحينئذٍ تنتشر بزورها وتأخذ في نموها البطيء . ولا تظهر الشجيرة على سطح الارض الا بعد ان تتجاوز من العمر سنتين او ثلاثاً

ومما يمتاز به شجر الارز على كل شجر في العالم ان اغصانه تتجه في نموها اتجاهاً افقياً ولكن من ينظر الى الشجرة ويفحص نمو اغصانها الاصلي فحصاً دقيقاً يدرك ان هذا الاتجاه الافقي لم يكن في اصل النمو اي عند بروز الغصن من جذع الشجرة بل حدث بعد ذلك . والتعليل الوحيد الذي خطر لي عند ما راقبت هذه الظاهرة هو انهُ عند ما يأخذ الغصن في البروز يأتي الثلج ويغطي الشجرة ويتجمد عليها ويظل كذلك نحو اربعة اشهر او خمسة . ولما كان نمو الارز بطيئاً جداً فان اغصانه تتحمل ضغط الثلج عشرات من السنين قبل ان تشتد ويصبح ثقل الثلج عاجزاً عن احنائها . ويبدأ الثلج بالتساقط في تلك الانحاء في شهر نوفمبر ويعلو حتى يبلغ خمسة امتار او ستة . فاذا نظرت الى غابة الارز في اواسط فصل الشتاء لا ترى بارزاً منها فوق الثلج الا المقدار الذي يزيد على هذا العلو فجميع الاشجار التي تقل عن ذلك يغمرها الثلج فلا بدع اذا انحنت الاغصان تحت ضغط الثلج وهي غضة رطبة واستمرت فيما بعد على اتجاهها الافقي

على ان اعجب مظهر من مظاهر نمو الارز هو تداعمه وتداخل اغصانه واشجاره بعضها في بعض . فهناك بضع شجرات تقاربت بفعل تضخمها مع مرور الزمن . ولما اتصلت احداها

بالاخرى التصقت واصبحت الشجرتان شجرة واحدة . وكلما مر عليهما الزمن زال آثار الاندغام حتى يصعب على الفاحص المدقق أن يعرف في النهاية ان الشجرتين اللتين كانتا منفردتين من قبل اصبحت شجرة واحدة

وهناك شجرة امتد منها غصن طويل الى ان بلغ شجرة اخرى قريبة منها واتصل بغصن من هذه الشجرة وبمرور الزمن التصق به الى ان اصبح الغصنان غصناً واحداً . فتستطيع ان ترى الآن مكان اتصالها وكيف صار كجذع تتفرع فيها بعد الى غصنين مع انك ترى ان هذا الجذع يتصل باحدى الاشجار من ناحية وبشجرة اخرى من ناحية اخرى . فلا بد لك والحالة هذه ان تقرر ان التداغم بين الاغصان والاشجار من خصائص الارز الطبيعية . ومتى اتضح لك ذلك لا تستغرب ضخامة الاشجار الآ انك تستطيع في الحال أن تثبت ان هذا التضخم لم يكن نتيجة عمر طويل بقدر ما هو نتيجة تداغم بين شجرتين او اكثر

وفي الغابة امثلة عديدة على هذا التداغم بين الاشجار من ناحية وبين الاغصان من ناحية اخرى . ويستطيع المرء أن يشاهده في حالة التطور . فهناك شجرتان اصبحتا متلامستين الآن واتصل جذعاها من الاسفل واندغما . وتستطيع ان ترى الشجرتين الآن واحداهما لا تبعد في اعلى جذعها عن الاخرى الا نحو ١٥ سنتمتراً وهذه المسافة تضيق رويداً رويداً الى ان تتلاشى في أسفل الجذع حيث التصقت الشجرتان . واذا نظرت الى الجذعين الى الجانبين المتقابلين من الداخل رأيت ان الشجرتين تستعدان استعداداً طبيعياً للالتصاق . فقشر الشجرة لا وجود له من الناحية المعدة للالتصاق بل الطبقة التي تحته . وهذه الطبقة ظاهرة للعيان . والقشر يصل الى جانبها فقط ويقف وتفرز الشجرة على هذه الطبقة الظاهرة مادة غروية اذا لمستها وجدت انها شبيهة صمغ او غراء قوي . ورأيت هذه المادة تكثر في اسفل الجذعين حيث يلتصقان وتقل كلما تباعد الجذعان بعد ذلك وهذا يدل على ان الطبيعة هيأت للالتصاق كل اسبابه . فنمت نحو الشجرة حيث يجب ان يجري الالتصاق كل اسبابه . وزادت من افرازها حيث بدأ الالتصاق وقل الافراز حيث ينتظر أن يتم الالتصاق في وقت قريب . فتستطيع ان تستنتج من هذا ان التداغم الذي تم في ما هو الآن اشجار ضخمة قد بدأ على مثال ما هو مشهود في الشجرتين المتقدمتين الذكر

اما المادة الغروية التي ذكرتها فهي غزيرة في شجر الارز . واكوازه تفرز منها مقداراً غير قليل ولا يستبعد ان تكون ذات فائدة كبيرة للصناعات المختلفة التي تستعمل انواع الصمغ والغراء وهي كثيرة لا يكاد يحصرها العد وقد يكون لصمغ الارز مزية كبائية لا تتوفر في غيره من انواع الصمغ والغراء . ومن السهل استخراجه سواء من جذوع الاشجار

او من الاغصان التي تتكسر كل سنة تحت اثقال الثلج واهوال العواصف في الشتاء او من الاكواز التي لا فائدة منها سوى الزينة . ويتساقط الالوف منها كل سنة تحت الاشجار فيجمعها الحراس ويضعونها في اكياس كبيرة ويوزعون منها على الزوار من قبيل التذكار . اما الاخشاب فانها تباع لتجار خصوصي مقيم في قرية بشري أقرب قرى لبنان الى الارز وهو يصنع منهُ صناديق وصوانٍ وقطعاً مختلفة من لوازم المكاتب والمنازل ويبيعها للطالبين باثمان غير قليلة

واما شجرة «الحيس» التي اشرت اليها في اول هذا المقال فهي شجرة ضخمة مجوفة في اعلى جذعها . ويروى ان ناسكاً كان يقيم فيها منذ نحو ١٥٠ سنة . وينام في جوفها وان الله كان يرسل اليهِ الطعام والشراب وذلك ان الماء كان يقطر عليهِ من داخل الشجرة فيشرب منهُ وان الطعام كان مما يطلع لهُ على اغصان الشجرة وجذعها . اما المن فمعروف واما تقطر الماء فلا يزال موجوداً حتى الآن لان فوق التجويف الذي يقال ان الناسك كان يقيم فيهِ تجويفاً آخر . ولا بدَّ ان هذا التجويف كان يمتلئ ثلجاً في الشتاء . فني الصيف يذوب الثلج ويتحول الى ماء ويتسلسل هذا الماء في جذع الشجرة حتى يتقطر فوق المكان الذي يقال ان الناسك كان يقيم فيهِ . ويستطيع كل من يفحص التجويف الذي كان يقيم فيهِ الناسك والتجويف الذي فوق ان يجد هذا التعليل معقولاً

وكان السياح الذين كانوا يقصدون الارز ينقشون اسماءهم على جذوعه . ولكن نقش الاسماء منع منذ زمن طويل وانقضت عشرات من السنين على الاسماء القديمة فلم تعد الآن مقروءة . واقدم اسم محفور على الارز ومعروف التاريخ يرجع الى ١٥٠ سنة كما هو ظاهر من التاريخ الذي لا يزال مقروءاً حتى الآن وصاحبهُ فرنسي في الغالب . واما الشجرة المسماة شجرة «لامرتين» فهي التي وضعت عليها لوحة تذكارية لزيارة شاعر فرنسا العظيم للارز ونقش اسمهِ واسم ابنتهِ جوليا على هذه الشجرة منذ ١٠٠ سنة . والاسمان الآن ظاهران على الشجرة بكل جلاء واللوحة موجودة في مكانها فوق الاسمين على علو مترين عن الارض ومشدودة الى الشجرة

وقد بنى الاب الفاضل المونسنيور اغناطيوس كيروز وكيل وقف الارز فندقاً جميلاً عصريًّا على رابية مقابلة لرابية الارز تظلهُ ثلاثة اشجار من الارز وجر الى الفندق مياه نبع شاغورة العذبة وأدخلها الى جميع غرفهِ . وراعى فيهِ احدث وسائل الراحة المعروفة في الفنادق العصرية . وقد مهدت حكومة لبنان الطريق الموصلة الى الارز فأصبحت السيارات تصل الى باب الفندق بعدما كانت تصل الى بشري فقط ومن هناك يركب المرء دابة توصلهُ الى الارز . وكانت المسافة تبلغ نحو ساعة . اما الآن فانها لا تتجاوز بضع دقائق بالسيارة

القاهرة توفيق اليازجي